فنّ الخطابة فی ضوء الحیاة الاجتماعیة فی العصر الأموی
(الخطبة البتراء لزیاد بن أبیه نموذجاً)

عیسی متقی زاده
أستاذ مساعد بجامعة تربیت مدرس، طهران، إیران.
سجاد اسماعیلی
ماجستیر فی قسم اللغة العربیة وآدابها بجامعة تربیت مدرس، طهران، إیران.
S.esmaili@gmail.com

الملخص

المجتمع هو مرجع الحق والباطل ومرجع الجمال والقبح، والأدب فی الحقیقة تعبیر عنه. حسب هذه العبارة القصیرة یمکن أن یفهم بأنّ الحیاة الأدبیة فی جمیع العصور، والعصر الأموی نموذجاً، تکون متأثرة من المجتمع وتصطبغ الفنون الأدبیة بواقع مؤثراته الاجتماعیة. إنّ الحیاة فی بعض المدن الأمویة کانت علی جانب ملحوظ من الإغراق فی معطیات الثراء العریض والغنی الموفور، تجد مسرحها فی محافل الغناء وندوات اللهو والطرب، فتمتّع بکثیر من هبات الحاکمین وفاز بأسباب الرعایة والاستقرار. ولکنها فی بعضها الآخر کالعراق (البصرة والکوفة) کانت الفتن دائمة فیها، والقلق مستمراً، والحیاة الاجتماعیة غیر محکمة الصلات؛ ففی مجتمع کهذا، نشأت الآفاق الأدبیة المختلفة، وکثر الأدباء الأفذاذ الذین بیّنوا آرائهم من خلال الشعر أو النثر أو الخطابة لأغراض یتطلبها المجتمع.

وکانت الخطابة – بوصفها فنٌّ لمشافهة الجمهور مع أسالیبها العدیدة کالإقناع والاستمالة – متأثّرةً من مؤثّرات اجتماعیة مختلفة فی نشوءها وتکوینها. أی بما أنّها تکون سلاح المجتمع الإنسانی فی سلمه وحربه، وفی ترقیته والإسراع به نحو المثل الأعلی، لذلک حاول هذا البحث المتواضع المناقشة حول دور الحیاة الاجتماعیة فی العصر الأموی، ومؤثراتها علی الخطابة مستمداً بتحلیل خطبة زیاد "البتراء"، متبعاً المنهج الوصفی والتحلیلی.

أمّا النتائج التی توصّلت إلیها هذه الدراسة فهی أنّ الخطابة کانت مولد المجتمع وأثّرت فیها مؤثرات مختلفة کانت مؤثّرة فی خطبة زیاد البتراء، بحیث اعتبرناها خطبة اجتماعیةً إصلاحیةً.

الکلمات الدلیلیة: العصر الأموی، الحیاة الاجتماعیة، الخطابة، زیاد ابن أبیه، الخطبة البتراء.

المقدمة

من البديهى أنّ المظاهر الأدبية فى كلّ عصر من الأعصار، كنزٌ لمعرفة أحوال الناس وثقافتهم وآدابهم الاجتماعية؛ حيث يمكن عقد الصلة بين الظواهر الجمالية والدلالية وبين البيئة الاجتماعية التى ولدت فيها هذه الظواهر، وهذه الظواهر تسهم فى صياغة النص فى سياق خاصّ منها الشعر والنثر، لذلک تقترن الحركة الأدبية فى كل عصر من العصور وفى أىّ مصر من الأمصار بعامل الاجتماع. (البستانى، ١۴٢٢: ٣١٠- ٣١٣)

عندما ننظر إلى البيئات العربية من الناحية الاجتماعية إبّان العصر الأموى فإننا نلحظ تطوّراً فى حياتها الاجتماعية نتيجة للمؤثّرات الكثيرة التى طرأت عليها منذ الإسلام، كما نلاحظ تأثّراً بهذا التطوّر الاجتماعى وانعكاساً له فى الشعر الأموى ونثره. ويلاحظ أنّ المظاهر الاجتماعية فى ذلک العصر، قد أخذت تختلف باختلاف البلدان التى غلبت فيها العناصر العربية؛ ففى المدن الحجازية وخاصةً مكة والمدينة، وجد ترف بعد أن لم يكن، وذلک لأنّ الدولة الأموية منعت زعماء القبائل من الخروج إلى الأقاليم، حتّى لاينازعها السلطان، وأدرت عليهم الخيرات ما منعهم من التفكير فى الانتقاض عليها، وأكثر أولئک من ذوى القلوب والعواطف الشديدة، العقول القوية. (عبد العزيز، ٢٠٠١: ١٢٧)

فى الشام حيث يحكم الأمويون فقد كان الترف سائداً، ولكن فى احتشام فى أكثر الأحيان، ليحتفظ الخلفاء بمهابتهم، وليحفظوا لهم صفتهم الدينية، وكيلا تتألّب عليهم العرب، وأكثرهم متديّن، ففى قصور الخلفاء كلّ وسائل الترف، من قيان وغناء، لذلک كانت الشام ميدان المباراة فى تملّق الخلفاء ومدحهم، بالخطب أحياناً وبالشعر أحياناً، وفيها كانت المفاخرات والمنافرات بين أيدى الخلفاء، وتحت سمعهم وبصرهم.

أمّا فى العراق وخاصةً فى الكوفة والبصرة، الفتن دائمة، والقلق مستمرّ، والحياة الاجتماعية غير محكمة الصلات، والسبب فى ذلک أنّه قد سكنه فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين طوائف من أجناس مختلفة فمنهم العرب وأغلبهم مضريون، ومنهم النبط، ومنهم الفرس، ومنهم الآراميون، ولكلّ طائفة من هؤلاء عادات وتقاليد، تستمدّها من قوميتها الأو لى، وجنسيتها القديمة؛ لذلک بدت فى العراق أفكار مختلفة وأهواء متناقضة ، وإحساسات متنازعة، ومجتمع كذلک تكثر فيه الفتن ويشتدّ الاضطراب. (أبوزهرة، ١٩٨٠: ٢٩٣- ٢٩٥)

إذن نرى أنّ انتعاش الحياة المعاشية فى بعض المدن الأموية وازدهارها وظهور كثرة الموارد أدّت إلى الترف والابتعاد عن شظف العيش وخاصة فى دووابن الدولة عند الخلفاء والأمراء فبنيت القصور وانتشر اللهو وظهر الترف والغناء والمحافل الكبرى والمواكب والاحتفالات؛ وكثر الشراب وقد قلّد الأغنياءُ الخلفاءَ والأمراء فيما فعلوه فى حياتهم، لكن فى بعض المدن كانت الحياة تعانى من الاضطرابات الاجتماعية والسياسية العويصة كالحروب والفتن، فكان لهذه الأسباب أثرها الكبير على حركة الأدب واتجاهاته؛ حيث إنّ الحركة الأدبية فى هذا العصر لاتشذّ عن حركة الأدب بعامة فى عوامل نموّها وتلوينها بل ربّما كانت أكثر الحركات الأدبية التى شهدتها العصور الأدبية متأثّراً من تلك المجتمعات. (الحسين، ١٩٩٨م: ٩-١٠؛ والجبيلى، ٢٠٠٥م: ٤٤١) لذلک ظهرت فى ذاک الجو السائد فى المجتمع الأموى، آفاقٌ علميةٌ وفكريةٌ بين مجموعة من النوابغ والأفذاذ فى ذاک العصر ونشطت النشاطات الأدبية، منها الحركة الخطابية بينهم وترعرع الخطباء البارزون متأثّرين من تلک المجتمعات.

فالخطابة اتّصلت اتصالاً مباشرةً بحياة الدول الاجتماعية لدى الأمم والشعوب فنمت بنموّها وترقّت برقيها. بحيث كثرت وتطوّرت من خلال المؤثّرات الاجتماعية المختلفة منها: البيئة الحضرية والبيئة الاجتماعية، وامتزاج العرب بالأمم الأخرى، والعصبيات والمفاخرات، والمحافل والوفادات، والاضطرابات السياسية والاجتماعية لاسيّما بعد مقتل عثمان، من قِبل الأمويين، والعلويين، والزبيرية، والخوارج، والقبائل المتعصبة، والعراق وثوراتها. فلهذا تأثّر الخطباء فى الحجاز والشام، من الحياة المترفة والرخية فى تلک المدن وقاموا بقول الخطب الحفلية المزينة بجميع الزخارف الأدبية، وبعضهم فى العراق ومدنه كالبصرة والكوفة، فقد تأثّروا بمظاهر الحياة فى تلک المجتمعات فى خطبهم، لأنّ الحياة الاجتماعية كانت تمضى فيها مع الفتن والاضطرابات آنذاک؛ لذلک فقد اصطبغت الخطابة فى هذا القطر بواقع هذه الحياة الاجتماعية فكانت الخطابة الحزبية، والسياسية، والاجتماعية، والاصلاحية شائعةً هناک.

لهذا سنجد كيف قفز النثر قفزة نوعية؛ محققاً تقدماً بارزاً على صعيد فنّ الخطابة بالقياس إلى ما كان عليه فى العصرين السابقين: أى الجاهلى وصدر الإسلام وبالقياس إلى ما آل إليه طيلة العصر الأموى الذى ورث من هذين العصرين سياسياً، وعلمياً، وأدبياً.

والجدير بالذكر، بأنّ هذه الخطَب،كانت تستتبع أغراضاً تتشعّب عن المجتمع الذى يخاطبه الخطباء، مثل هذه الأغراض كانت إقناع الآخرين، والاستمالة، وأغراض حكومية أخرى. لهذه الأسباب اتجهنا إلى دراسة الخطبة البتراء لزياد ابن أبيه الموجّهة نحومجتمع البصرة المكتظّة من المؤثرات السياسية والاجتماعية، مبيّناً دور تلک المؤثرات فيها.

أسئلة البحث

١. ما هى الأدلة التى تثبت بأنّ زياد بن أبيه وخطبته كانا متأثرين من المؤثرات الاجتماعية؟

٢. هل يمكن أن نعتبر الخطبة البتراء خطبةً اجتماعية واصلاحية؟ وكيف؟

الدراسات السابقة

تطرّقت بعض الدراسات إلى دراسة بعض الفنون من الأدب فى العصر الأموى كالخطابة وأحد خطبائه الكبار كزياد ابن أبيه، وإلى مجتمع من المجتمعات فى ذلک العصر كالحجاز؛ ولكنّها ما تطرّقت دراسةً مباشرةً بإيضاح دور المجتمع الأموى فى الخطابة، منها:

١. رسالة ماجستير لإبراهيم فرحانى بغلانى (١٣٧٣هـ) وعنوانها «حركة تطور الخطابة فى الأدب العربى من العصر الجاهلى حتى نهاية العصر الأموى»، اهتمت الى دراسة تطور الخطابة فى تلک العصور من غير تأثيرها من المجتمع.

٢. دراسة عبدالله بن سالم الخلف (١۴٢٢هـ) وعنوانها «مجتمع الحجاز فى العصر الأموى» ركّزت هذه الدراسة بتفصيل مظاهر الحياة الاجتماعية فى إحدى من المدن المترفة فى العصر الأموى، أى الحجاز.

٣. دراسة على نعيم جفّال (١٩٩٠م) وعنوانها «زياد ابن أبيه بحثٌ فى الخطابة الأموية» التى اهتمّ المؤلّف فى هذا الكتاب بدراسة خُطب أحد الخطباء الكبار فى العصر الأموى أى زياد ابن أبيه من غير تبيين دور المجتمع الأموى فى خطبه.

فاهتمامنا على هذه الدراسات ساعدنا فى تجميع هذا الكمّ الضئيل من المعلومات، وقد أذكت الحماس فينا للخوض فى دراسة الخطابة، وارتقت نظرتنا إلى أفق آخر من الخطابة وهو تبيين دور المجتمع الأموى على نشوءها وتطوّرها، مستمدّاً بتحليل خطبة زياد "البتراء".

لكن قبل أن نجيب عن السؤالين السابقين ونخوض فى صلب الموضوع، لا بدّ لنا أن نكشف اللثام عن الخطابة ونسلّط الضوء على بعض خصائصها الرئيسة فى هذا العصر حتّى يوضّح لنا مدى أهميتها.

١. الخطابة فى العصر الأموى

لما جاء الإسلام بفتوحاته ازداد النثر توسعاً، بحيث عمد إلى الصنعة وغلب عليه الطبع وكان يقصد الى توضيح الفكرة بأيسر عبارة وأقرب طريق وكانت قاعدة البلاغة فيه الإيجاز. (الفاخورى، ١٣٧٧ق: ٣١٧) فاقتضت الحاجة إلى المراسلة بعد اتّساع الفتوحات ودخول الأقطار النائية فى حوزة الحكم الإسلامى، وإلى الخطابة لتعليم الناشئين من الأجيال الطالعة والداخلين فى الإسلام من الأعاجم ولإخضاع المتمردين من المخالفين وقمع العصاة من الثائرين و...إلخ. (يازجى، ١٩٨۶: ٣٨) إذن أهمّ جوانب النثر فى تلک البرهة يكون الترسل والخطابة؛ حيث إنّ الترسّل كان يستفاد منه فى بيان الأحكام الإسلامية غالباً، والخطابة لإسكات فم المتمرّدين والمعترضين وأحياناً للوعظ والترهيب للعصاة والفاسقين. فلهذا فنّ

الخطابة يكون أكثر أهمّية من الترسّل لأنّها تخاطب الشعب إصلاحاً لأمورهم. وفى تعريفها يقال الخطابة هى: «فنّ مخاطبة الجماهير بطريقة إلقائية تشتمل على الإقناع والاستمالة»، وبهذا التعريف الذى سبق تختلف عن الكتابة والنثر الفنى، إذ لا شرط هناک لوجود الإقناع أو الاستمالة وقد تكون الكتابة وصفاً لمنظر ما، أو صفةً لحالة نفسية للكاتب. (شلبى، ١٩٨۶م: ١٣) ولكن الخطابة تحتوى على عبارات كثيرة من النثر الفنى فيها جمال التركيب وحسن الحلية اللفظية كالسجع والطباق وقد يرفع هذا قيمتها. (قدامة بن جعفر، ١٩٣٧م: ٩٣)

إنّ دراسة الخطابة ترشد من عنده استعدادٌ لها، ويريد أن ينميها، فهى تنير السبيل ليسير على هداية ويكون على بيّنة من أمره. وهى تدلّ على الطريق الذى يجب أن يسلكه، وتكشف عن السير فى تأثير الخطباء واستيلاءهم على مشاعر من يخاطبون واجتذاب نفوسهم وطرق إقناعهم. والهدف الذى يستتبع الخطابة هو التأثير، ومخاطبة الوجدان، وإثارة الإحساس والشعور ليذعن المخاطب للحكم ويسلّم به. (العاملى، ١٩٨٣م: ٧ – ١٧) إذن يمكننا أن نستدلّ بأنّ الخطابة هى تعبير أدبىّ جميل، فى غاية المحسّنات اللفظية التى تستتبع هدفاً تعليمياً مهماً، أى بصفتها مشعلاً منيراً تهتدى من ضلّ وخرج عن سبيله إلى طريق الصواب، من خلال الأساليب المختلفة التى يعتمد الخطيب عليها لتؤثّر فى تفكير الجمهور وعواطفه، وتدفع الإرادة إلى العمل الحاسم، ومن هذه الوجهة صارت الخطابة فنّاً عملياً إصلاحياً.

أمّا العصر الأموى فهو من أزهى عصور الإسلام خطابةً، ولم يكن حظّ الخطابة من الرواج والنقاء فى أىّ عصر من عصور الأدب العربى كلّه مثل ما كان فى هذا العصر. ازدهرت الخطابة فى هذا العصر وافتنّ الخطباء فيها، فتميّزت بخصائص شتّى، لم تجتمع كلّها للخطابة فى الجاهلية ولا فى صدر الإسلام، ولم تجتمع لها فى العصر العباسى. لهذا يصحّ اعتبارها فى تلک الفترة نموذجاً مكتملاً للخطابة العربية فى العصور السابقة. (الحوفى، ٢٠٠١م: ٢٠٩) ازداد عدد الخطباء فى ذلک العصر ازديادا بالغاً، وتعدّدت طوائفهم، واختلفت نواحيهم، ومذاهبهم الفكرية، وكان لكلّ حزب خطبائه. فى الخطب السياسية زياد بن أبيه والحجاج بن يوسف فى الحزب الأموى والمختار الثقفى فى الحزب الشيعى وقطرى الفجاءة فى حزب الخوارج. فى الخطب الحفلية الأحنف بن قيس زعيم تميم بالبصره. واشتهر فى الخطابة الدينية على بن ابى طالب وتميم الدارى بالمدينة والحسن البصرى وواصل بن عطاء والفضل بن عيسى فى العراق وغيلان والأو زاعى فى الشام. (الفاخورى، ١٣٧٧ق: ٣١٩)

٢. خصائص الخطابة

كما عرفنا أنّ الخطابة فى العصر الأموى كانت استمراراً للخطابة فى صدر الإسلام الأو ل ولكن زادت فيها خصائص انفردت عن الخطابة فى العصور المنصرمة، منها: ١. طول الخطب؛ ذلک لأنّ الخطبة كانت

لتبليغ أو أمر الدولة فلمّا كثرت تلك العوامل باتساع رقعة الإمبراطورية وبتطوّر الحياة الإدارية والسياسية احتاج الخطباء إلى بسط القول فى ذلک ومن هنا جاء طول الخطب فى الدرجة الأو لى. ۲. ظهور عنصرى التهديد والوعيد؛ ذلک لأنّ الولاة الأمويين كانوا يخاطبون فى أول الأمر على الأقل فى بيئات معادية للدولة الأموية. لذلک ظهر الحزم فى مخاطبة الجمهور وكثر التهديد للذين تحدثهم أنفسهم بالعصيان،كما نرى فى خطب زياد بن أبيه ثم الحجاج على الأخص؛ مثل قول زياد فى خطاب أهل البصرة: «ألم يكن منكم نهاة تمنع الغواة عن دلج الليل وغارة النهار قربتم القرابة وباعدتم الدين، تعتذرون بغير العذر... .» وكثيراً ما مزجوا الخطباء أساليب التهديد بروح الاحتقار وعمدوا إلى عبارات الشتم والتهديد والتنديد. ۳. الإفادة من منهج الاستماله والترغيب. (فروخ، ۱۹۹۲م: ۳۷۴– ۳۷۳) ۴. كان الخطباء الأمويون يعنون بتجويد خطبهم وتحبيرها وتنميقها حتى تأتى فى الصورة التى يرتضونها ولم يكونوا يرسلون الكلام عفواً على البديهة – صنيع الجاهليين – وكان من ثمرة هذا التنقيح أن جاءت خطب العصر الأموى منسّقة الأفكار، مرتبة الأقسام، محكمة التسلسل. وتظهر هذه السمات على نحو جلىّ فى خطبة زياد بن أبيه التى قالها يوم قدومه فى البصرة. ۵. كان من الخطباء من تعمّد محاكاة أهل البادية فى جزالة أسلوبهم وبداوة ألفاظهم. ۶. استهلال الخطبة بذكر اسم الله وحمده وإلّا كانت البتراء وتوشيحها بآية من القرآن الكريم وإلا كانت شوهاء، لذا وشيت خطب العصر بآيات من القرآن لأغراض فيها الوعظ والردع والترهيب. ۷. ترصيع الخطب بالأمثال والشواهد الشعرية فى مواقف الإرهاب والشدّة والتحدى والمفاخرة، كفعل الحجاج فى خطبة الولاية. ۸. وقع السجع فى طائفة من الخطب الأموية ولكن الخطباء ما كانوا يسرفون فى الإتيان به كراهية محاكاة سجع الكهان. ۹. محاجة الخصوم بالبراهين والأدلة العقلية؛ حينما ظهرت الفرق الكلامية برزت الحاجة إلى تعليم أتباع كل فرقة أصول الخطابة ووسائل الإقناع وظهر صدى ذلک فى الخطب والمناظرات من حيث خصب الأفكار وتنسيقها وعمقها واستنادها إلى المنطق وأصول الجدل. ۱۰. امتلاء الخطب بروح الإعتداد والفخر والزهويات بالمناقب، كقول عبد الملک: «إنّى والله ما أنا بالخليفة المستضعف.. فمن قال برأسه كذا، قلنا له بسيفنا كذا...» ۱۱. ترأو ح الخطب بين الإيجاز والإطناب حسب مقتضى الحال. ۱۲. الإلحاح على عوامل الإثارة أكثر من الإلحاح على أدلّة الإقناع. (http://www.mohtawa.org)

هذه كانت أهمّ وأبرز المعانى والخصائص الفنّية فى خطب الأمويين التى تتفاوت بتفاوت أغراضها وموضوعاتها. وهذا لايعنى أنّ هذه الخصائص لم تكن فى العصر الجاهلى وصدر الإسلام بل فقد ظلت بعض خصائص الخطابة الموجودة فى خطب صدر الإسلام قائمة فى الخطب الأموية أيضاً.

نشأت وازدهرت الخطابة فى هذا العصر ازدهاراً ملحوظاً وقد عملت فى هذا الازدهار أسباب مختلفة منها: ١. الأحزاب السياسية المتعددة من الأمويين والزبيريين والخوارج والشيعة، ٢.حرية الرأى بالقول والجهر بالرأى، ٣. الحروب والثورات، ۴. فصاحة العرب، ۵. تقرير الخطباء، ۶. الجدل المحتدم بين الفرق الدينية. (الجنابى، ٢٠٠٥م: ١٥۶– ١٥٩) لكن ما نريد مناقشته فى هذا البحث هو ، تبيين دور المؤثّرات الاجتماعية فى نشوء وتطوّر الخطابة.

٣. المؤثّرات الاجتماعية فى نشوء الخطابة فى العصر الأموى

الخطابة فى هذا العصر أفسحت مكانها من خلال بعض العوامل الاجتماعية منها ما هو اجتماعى صرف، ومنها ما هو بسبب من السياسة والدين، وثمّة ظواهر لها وجهان أحدهما سياسى والآخر اجتماعى، كالعصبية القبلية مثلاً. بما أنّ الخطابة تعكس لنا بصورة صادقة أمينة أحداثِ العصر الذى يظلّها وأحوال المجتمع؛ فلنترک الحديث عن العوامل السياسية ونعرض بعض العوامل الاجتماعية المؤثّرة فيها.

٣. ١. البيئة الحضرية والبيئة الاجتماعية

أصبحت الحواضر فى هذا العصر الموجّه الأول للحياة العلمية والأدبية والفكرية والسياسية. فكذلک أصبحت الحواضر موطن النشاط الخطابى الخصب والموجه الأول لحياة الفنّ الخطابى فى هذا العصر. وفى هذه المراكز الحضرية نشأ أشهر الخطباء وأفصحهم، وفى مساجدها وحلقاتها ألقيت أروع الخطب وانعقدت مجالس المناظرة والجدل. فأدّى تحضّر العرب فى هذا العصر واستقرارهم فى البيئات المدنية الجديدة إلى ازدهار الحركة الخطابية وكثرة عدد الخطباء وإلى تعدّد صور الخطابية وأنواعها. أمّا أشهر المراكز الحضرية التى ازدهرت فيها الخطابة فهى: الكوفة، ودمشق، ومرو، والمدينة، ومكة، والفسطاط والمراكز الثلاثة الأولى تأتى فى الطليعة، ففيها ألقيت جلّ الخطب السياسية والدينية والاجتماعية فى عصر بنى أمية. (النص، ١٩۶٣م: ١٢۶ – ١٢٨) لذلک أنّ الحياة الاجتماعية فى البيئة الحضرية كانت فى العصر الأموى أخضب وأنشط منها فى البيئة البدوية. والخطابة بصفتها ظاهرة اجتماعية ولا ظاهرة فردية كالشعر، ترتقى بارتقاء الحياة الاجتماعية ونموّها.

٣. ٢. امتزاج العرب بالأمم الأخرى

أدّت الفتوح الإسلامية إلى انضواء أمم كثيرة تحت لواء الحكم العربى فدانت لسلطان بنى أمية شعوب شتّى فارسية وتركية وبربرية وهندية وغيرها، وما لبث العرب أن ارتحلوا إلى البلاد المفتوحة واستقرّوا فيها وأنشأوا لهم فيها حواضر جديدة كانت فى الأصل معسكرات لهم كالكوفة والبصرة والفسطاط والقيروان. وكان لا بدّ لهم من الاختلاط بسكّان البلاد الأصليين والامتزاج بهم، وكان لهؤلاء حضارات سابقة وثقافات مزدهرة وديانات قديمة ونظم سياسية واجتماعية، ولم يكن بدّ من أن تتفاعل هذه

الحضارات والثقافات جميعها لتتولّد من التفاعل حضارة جديدة هى مزيجة من جميع هذه الحضارات التى انصهرت فى بوتقة الدولة العربية، ولم يكن بدّ أيضاً من نشوء مجتمع جديد لا هو بالعربى الخالص ولا بالعجمى الخالص وإنّما هو خليط من هذا وذاک. وكان من نتيجة هذا الامتراج نشوء اللحن الكثير فى كلامهم والكلمات الأعجمية والفساد فى اللغة. ولم ينتشر اللحن فى المدن والحواضر فحسب بل تسرّب إلى البادية أيضاً. (المصدر نفسه: ١٢٨-١٣٠) بما أنّ الخطباء كانوا يعيشون فى تلک المجتمعات، إذن من الطبيعى أن ينشاء اللحن فى كلامهم والفساد فى لغتهم،كما تُشاهد هذه الظاهرة فى بعض خطب الحجاج حينما يقول: «إنّا من المجرمون منتقمون»، بينما الصواب فى قوله هو "المجرمين". لذلک إنّ اختلاط العرب بالأعاجم وانتشار اللحن وفساد اللغة، فقد أثار هؤلاء الأعاجم معهم أنماطاً جديدة فى التفكير والنظر العقلى. تجلّى أثر الجدل فى خطب هذا العصر.

٣. ٣. العصبيات والمفاخرات

لما هاجرت القبائل العربية من مواطنها إلى الأمصار واستقرّت فى الحواضر ظهرت العصبية عند أهل كلّ مصر لبلدهم. وأنّ نفوس العرب قد تشرّبت حبَّ التعصب حتّى بات كلّ افتراق بينهم على نحوما يؤدّى إلى عصبية تساوقة، فأهل البادية يتعصّبون لباديتهم وأهل الحضر لحواضرهم وأهل الأمصار يتعصّب كلّ منهم لمصره، فإذا ظهر فى بلد ما مذهب دينى أو لغوى أو أدبى وجدنا أهله يتعصّبون له أيضاً. ثمّ كان من نتيجة الفتوح العربية واختلاط العرب بالأمم الأخرى، أن ينظر العرب إلى الأمم الأخرى نظرة السيد إلى المسوّد وتعصّبوا لعروبتهم واحتقروا الموالى. لهذا صار المجتمع الأموى مجتمعاً لاتؤالفه روح الألفة والتآخى ولا الشعور بالمساواة فى التعأو ن المتبادل، فعلى عاتق هذه العصبيات أولاً تقع الاضطراب الاجتماعى وتقطيع الوشائج التى كان ينبغى أن تؤلّف ما بين أفراد المجتمع الواحد، كذلک هذه العصبيات من الناحية السياسية كانت أمضى معول لتقويض صرح الدولة الأموية. (المصدر نفسه: ١٣٢-١٣٣) من البديهى أن تظهر نتيجةً لهذه العصبيات روح التنابز والفخر بالألقاب والأنساب والأحساب والاعتداد بمكارم الآباء ومآثر الأجداد. وأشهر ما خلّفه لنا العصر الأموى من هذه المفاخرات ما جرى بين حجاج بن يوسف الثقفى وأهل الكوفة حينما يفتخر فى مطلع خطبته بنفسه ويشبه نفسه برجل جلا فى الأمور ويشتدّ فى الغارة والحرب: «أنا ابن جلا وطلّاع الثنايا/متى أضع العمامة تعرفونى.»

٣. ٤. المحافل والوفادات

من الظواهر التى يلاحظ فى عصر بنى أمية، هى كانت حظّ الأمصار من الشأن العظيم فى توجيه الحياة السياسية، وانتقال مركز الثقل السياسى من البادية إلى الحواضر. ولم يكن بدّ من أن تتجه الحياة الاجتماعية اتجاهاً حضرياً يلائم إتّجاه الحياة السياسية. ففى المدن والأمصار كانت تقوم المحافل

الخطابية يخطب فيها لأغراض شتّى من أوتوا الموهبة البيانية من فصحاء العرب. يتفاخرون أو يتناظرون أو يتبادلون الرأى فيما يعرض لهم من جليل الأمور. ومن المجالس الخطابية المشهورة هى المجلس الذى اجتمع فيها أربعة من أعلام البيان هم خالد بن صفوان وشبيب بن شبيبة والفضل بن عيسى وواصل بن عطاء. (المصدر نفسه: ١٣٩) فهذه المحافل والوفادات كانت داعية لقول كثير من الخطب التى تعدّ من خير خطب العصر الأموى. لأنّ الخطباء كانوا يبذلون فى هذه الخطب من عناية مسرفة فى تحبيرها وتجويدها. وهكذا صارت الخطابة ضرورة من الضرورات الحياة الاجتماعية وأكسبت منزلتها فى الدولة الأموية.

٣. ٥. الاضطرابات السياسية والاجتماعية

كانت الاحداث السياسية والاجتماعية التى حفل بها العصر الأموى أبرز العوامل التى تأثّر بها الفنّ الخطابى فى هذا العصر، وتاريخ العصر الأموى يسجّل صراعاً متصلاً بين الفرق والأحزاب المختلفة، وكان مدار هذا الصراع على الخلافة، ففى سبيل الظفر بها اصطرعت الأحزاب والفرق صراعاً حربياً لسانياً لم تهدأ ثائرته طوال هذا العصر، وكان النزاع القبلى صورة من صور هذا النزاع السياسى الذى شاهدها هذا العصر وأيضاً الصراع بين العرب والعجم كان لوناً آخر من النزاعات فى هذا العصر. وكان من شأن هذه الأحداث أن ازدهرت الخطابة السياسية ازدهاراً لم تحظ به فى أى عصر آخر، إذ أنها كانت بمثابة أحد الأسلحة الماضية التى استخدمت إبان هذه الصراعات السياسية العنيفة. أى إذا اضطربت أمّة لتغيير سياستها، أو تبديل دينها، أو إصلاح نظام اجتماعى من نظمها، انبعث منها خطباء يتصدّرون الدعوة ويحتضنونها، فيدعون إلى الجديد، ويكتشفون عن مزاياه، ويزعزعون القديم من النفوس، وينفرون منه حتى يقوضوه. (الحوفى، ٢٠٠١م: ۴۴) كما يرينا زياد ابن ابيه فى خطبه مظاهر هذا التاثير.

فلذلک من الطبيعى أن نرى الوقع الكبير من هذه المؤثّرات وميلها إلى الترف، والفخر، والعصبية، والابتعاد عن شظف العيش، وبناء القصور، وانتشار اللهو ، والمحافل الكبرى، والاحتفالات وأيضاً الاضطرابات السياسية والاجتماعية، على حركة الخطابة وأغراضها لدى الخطباء فى المجالات المختلفة. بحيث إنّهم قد جرّبوا هذه المؤثرات الاجتماعية تجربةً شعورية تامّةً وتأثّروا منها فى خطبهم.

بين أيدينا أدلّة وافرة من أقوال الخطباء الكبار تؤيد ما ذهبنا إليه، من ذلک ما نراه فى خطب زياد ابن أبيه؛ حيث طغت تلک المؤثّرات على روحه الأدبية وامتلأت خطبه إمّا بروح الإعتداد والفخر بمناقبه وإمّا بروح الاهتداء والإنذار للمجتمع وإصلاح أموره، من خلال الأساليب المختلفة كالإقناع أو الترغيب أو الترهيب و... الخ. فتحليلُ خطبته البتراء يكون مثالاً جلياً للكشف عن حقيقة هذا التأثّر.

۴. تحليل خطبة البتراء وتبيين دور المجتمع فيها

۴. ١. زياد بن أبيه والمجتمع

يستحقّ الانتباه لشخصية زياد أكثر من الشخصيات الخطابية الأخرى فى هذا العصر لأنّ سيرته تظهر لنا جوانب من محأو لاته السياسية ومواجهته مع الأحزاب والجماعات المختلفة، كما تظهر جوانب أخرى من بعد النظر وعمق التفكير وتقدير الأحداث المتوقعة. لهذا نقف أمامه وقفة قصيرة كى تجيبنا شخصيتُه وأعمالُه الحكومية عن كيفيةِ تأثّره من تلك الأحزاب والجماعات خاصةً ومجتمعه عامةً.

إنّ زياد بن أبيه ولد بالطائف فى السنة الأولى من الهجرة ويقال أيضاً أنّه ولد عام الفتح. اشتهر منذ نشأته بالذكاء والدهاء وقوة المعارضة وحضور البديهة ويعتبره المؤرخون أحد دهاة العرب ويجعلونه فى طبقة عمروبن العاص والمغيرة بن شعبة ومعأو ية بن أبى سفيان. (ضيف، ١٩٥٦م: ٤٨) لما فتح عتبة بن غزوان – عامل معسكر البصرة – الأبلةَ وأصاب بها غنائم كثيرة ولم يجد بين المسلمين من يحسن الكتابة، فاختار زيادَ كاتباً لها وجعل له درهمين كلّ يوم، ثمّ ظلّ يسحب الجيش فى فتوحاته فى الشرق ويكتب للناس الحساب ويدوّن أسماء المحاربين ويخطب أثناء الحروب خطبة ويشجّع المقاتلين على المقاتلة. وبسبب نجابة زياد وأجادته فى الكتابة والحساب والخطابة لم يستغن عنه ولاة البصرة فظلّ على صلة بهم فى عهد عمر، وعثمان، وعلى (ع)، ومعأو ية. فى عهد عمر كان كاتباً للمغيرة بن شعبة، ولأبى موسى الأشعرى، وفى عهد عثمان كان والياً على الديوان وبيت المال، وفى عهد على أيضاً كان والياً للخراج وبيت المال وقد جرّته هذه الأعمال إلى الاتصال بالحزب العلوى. كما ولّاه معأو ية والياً على البصرة وخراسان وسجستان، ثمّ جمع له السند، والبحرين، وعمان ثمّ ضمّ له الكوفة فأصبح بذلك والياً على العراقين (البصرة، والكوفة). (شلبى، ١٩٨٦م: ٢٢٥–٢٣٠) يبدوأنّ زياد كان يعرف تعلّم الحساب، والكتابة، والخطابة فهذه البراعات قد سبّبت حضوره فى الحروب ومواجهته أمام القواد. وجعلت الأمراءَ أن يثقون به ويولونه الأعمال الحكومية المختلفة فيشهدون بطول باعه فيها.

ولاية زياد على البصرة وبما كان فيها – كما بالعراق كلّه – من تفرّق الكلمة وتشعّب الرأى واختلاف الأهو اء، قد جعلته أن يدرک وخامة ظروف البصرة وحرج موقفه. ولكنه لم يصبح محايداً بل أصبح أموياً يساعد تلک الظروف. لم يترک زياد فى حكومته وسياسته الداخلية ما ألفه من ضرب بعض خصومه ببعض، وعمل فى العراق على تفتيت وحدة القبائل فقسّمها أرباعاً، ونقل بعضاً من الكوفة إلى البصرة ليقلّل عدد القبيلة الواحدة، ويفل شوكة المتآمرين. (المصدر نفسه: ٢٣١– ٢٣٢) لذلک نرى بأنّه قد بذل قصارى جهوده فى سبيل إقرار الأمن والقضاء على ما كان فى العراق عامّة والبصرة خاصّةً من الاضطرابات الاجتماعية. ربما خطبته المعروفة بالبتراء تكون من أصدق وأبرز أدلة على ميزان اهتمامه بالبصرة. لذلک صار من أبرز خطباء بنى أمية، وأعظم خطيب سياسى فى الأدب القديم.

من خلال دراسة حياة زياد الشخصية والاجتماعية يمكن القول بأنّ هناک توجد الدواعى الهامّة التى تثبت بأنّه كان متأثّراً فى خطبه من المجتمع ومؤثراته المختلفة، الأو ل: أنّه تولّى مهمات قيادية – إدارية وتنظيمية – جسّاماً؛ تمثّلت بتولية إمارة فارس زمن الإمام على، ثمّ إمارة البصرة، فالكوفة، فالحجاز واليمامة، جميعاً زمن معأو ية، ولقد نجح فى إدارة شئون البلاد التى تولّاها نجاحاً منقطع النظير، فولايته لهذه الولايات تدلّ على أنّه كان متأثّراً من البيئة الحضرية والبدوية وأيضاً على اتصاله وامتزاجه بالامم الأخرى كالفرس أى إمارة خراسان وسجستان. والثانى: الصعوبة التى واجهها فى أثناء ولايته فى بلوغ الأهداف وفى توطيد الأمن وإشاعة الهدوء، متأثرةً من الأو ضاع السياسية والاجتماعية المضطربة آنذاک. كما أنّ النشاط السياسى والدينى كان على أشدّه فى ذلک الزمن، فقد كثرت الأحزاب وتعددت الفرق الدينية، التى راح كلّ منها يدعوالى نفسه، ويعمل بكلّ الوسائل من أجل الوصول الى أهدافه السياسية والاجتماعية. وأخيرا لعلّ عاملاً شخصياً يتعلّق بنسب زياد المضطرب وانعكاس ذلک الإحساس على شخصيته وسلوكه العام.

لذلک إنّ الأوضاع السياسية المعقّدة والأحوال الاجتماعية المضطربة، إضافة إلى قدراته الذاتية، هى التى جعلت زياد رجل الخطابة الأو ل فى عصره، وجعلت خطبته المسمّاة "بالبتراء" نموذجاً كاملاً للخطابة السياسية والاجتماعية فى العصر الأموى بخاصة وفى العصور اللاحقة بعامّة. إنّه قام على المنابر خطيباً ينشر الدعوة لبنى أمية ويدعو إلى السكينة والانقياد، إنّه كان يتمتّع بسلطان واسع على أبناء ولايته، كما كان شديد الاطّلاع على أحوالهم الشعوب ونفسانياتهم. ربّما تحليل خطبته المعروفة بالبتراء تكون مما يدلّنا إلى أنّها خطبةٌ متاثرةٌ من المجتمع الذى شاهده وعاناه.

۴. ۲. تأثّر خطبة "البتراء" بالمجتمع

إنّ من يرجع إلى خطبة زياد البتراء يلاحظ أنّه عُنى بتأليفها عنايةً شديدةً فهى مقسّمة إلى فِقر وكل فقرة نشعر إزاءها كأنّها وحدة قائمة بنفسها، وربّما كان هذا هو أهمّ فارق بين خطبة زياد وخطب صدر الإسلام. والأهمّ من هذه أنّ الخطيب ما تطرّق فيها بالدين وأحكام الشريعة بل فصّل فيها كلّ ما يتعلّق بالمجتمع، ظروفه وملابساته ومشكلاته وكأنّها خطبة لأحكام العرفية التى توضعها الحكومة فى الحالات الطارئة عندما تتعرض للأخطار الداخلية والخارجية المهدّدة لسلامتها. لذلک قمنا بتحليل هذه الخطبة اجتماعياً ولا أدبياً.

إن ننظر إلى الخطبة البتراء نظرةً تأمّليةً ودقيقةً نرى أنّ فيها دواعياً تثبت تأثّرها بالمجتمع، فنأتى بشرح أهمّها فيما يلى:

الف. حضور زياد بن أبيه فى البيئة الحضرية والاجتماعية المضطربة: إنّه ألقى هذه الخطبة حينما ولّى البصرة لمعأو ية بن أبى سفيان وهى تتصل بظروف تحكمت بمعانى الخطبة وألفاظها؛ البصرة فكانت قد شقّت عصا الطاعة على بنى أمية، وانحلّت فيها رابطة الخلق، وعمّتها مفاسد الأخلاق، وبيوت الفحش والريبة. فقد عرف زياد أهل البصرة وعرّفوه من قبل، حين كتب لأبى موسى الأشعرى فى أثناء ولايته عليها، فى خلافة عمر بن الخطاب وقد كان بينه وبين قوم منهم إحن نشأت عن تعبيرهم له بالنسبة الضعيف، قبل أن يستلحقه معأو ية بأبيه، ولا ريب أنّ تلك المواقف الماضية كانت لاتزال تؤثّر فى نفسه وتشعره بمركب النقص، ولم يكن بوسعه أن يتجاهل ذلك وذكاؤه كان يحدوبه الى التعويض والتكافوء. (فاروق الطباع، ١٩٩١م: ٢٥٧) فكان على زياد أن يخلص لبنى أمية ويثبت لهم خلافتهم ويؤكّد حقّهم فى السلطة وأن يرجع أهلها إلى جادة الحق ويحملهم على الإذعان للأمويين. وقد بات يعتبر نفسه منهم. إذن نرى أنّه يبدأ الخطبةَ هكذا:

«أمّا بَعدُ، فانّ الجهالةَ الجَهلَاءِ والضّلالَة العَمياءِ، والغَىّ الموفى بأهلِه علَى النّارِ، ما فِيه سُفَهاؤكُم ويشتملُ عليه حُلماؤكُم، مِن الأُمورِ العِظامِ، ينبتُ فِيها الصَّغيرُ ولا يتحاشَى عنهَا الكَبيرُ ؛ كأنّكُم لم تَقرؤُوا كتابَ اللهِ، ولم تسمَعُوا ما أعَدَّ اللهُ مِن الثَّواب الكَريمِ لأهلِ طاعتِه، والعَذابِ الأليمِ لأهلِ معصيتِه، فى الزَّمنِ السَّرمَدى الّذى لايزولُ. أتكُونونَ كَمَن طَرفَت عينَيه الدُّنيا وسدَّت مَسامعُه الشَّهو اتُ واختارَ الفَانية علَى البَاقيةِ ولاتَذكرونَ أنَّكُم أحدَثتُم فِى الإسلامِ الحَدَثَ الّذى لم تسبَقوا إليه، مِن تركِكُم الضَّعيفَ يقهَر ويؤخَذ مالُه.... ما أنتُم بِالحُلَماءِ ولَقد اَتبعتُم السُّفَهاءَ، فلَم يزِل بِكُم ما تَرونَ مِن قِيامِكُم دُونَهم حتَّى انتَهكُوا حُرَمَ الإسلامِ، ثُمّ أطرَقوا وَراءَكم كُنُوسَاً فى مَكَانِس الرَّيبِ.. » (ابن عبد ربه، ١٩٥٢م: ١١٠)

هذه القطعة من الخطبة ترينا مدى عناية زياد بتأليفها، يستهلّها ببيان غواية المجتمع البصرى وضلالتهم وانحرافهم عن هدى الإسلام وقرآن الكريم. ثم يبين لهم سياسته الّتى سيأخذهم بها وأنّها لين فى غير ضعفٍ وشدة فى غير عنف ويختمها بالوعيد الشديد يشوبه بالترغيب.

ثمّ عندما يطمئنّ زياد إلى أنّ هذا المجتمع قد استكان أمام صولة الدين وأطرق أزاء ذلّة الخطيئة ووطأة الذنوب، وراح يتحسس فى قلوبهم مواطن الندامة؛ ثمّ يبدّل ثوب الواعظ ويظهر بلباس الحاكم الذى جاء يمارس صلاحياته ويوغل فى العنف والتهديد ويذكّر الناس بما استحدثوا فى الإسلام، من ذنوب ويلزمهم بأمور مثل الكفّ عن دعوى الجاهلية و...إلخ. ولعلّ زياداً قد شعر بأنّ أهل البصرة، قد نسوا بوعوده ووعيده وبرفقة تحذيره، فلهذا يختم كلامه بما يردّهم إلى الحيطة والخوف وأنذرهم من التمادى فى الباطل. نرى هذا فى قوله: «وإنّى أُقسمُ باللهِ لآخذنَّ الوَلىَّ بالمولى والمقيمَ بالظاعنِ، والمقبلَ بالمدبرِ والمطيعَ بالعَاصِى والصَّحيحَ بالسَّقيمِ...» ثمّ فى مقطع آخر يقول: «مَن نَقبَ مِنكُم عَليه فأنا ضَامنٌ لما ذَهَبَ

مِن مالِه. فإيّایَ ودَلجَ اللّیلِ فإنّی لا أوتیَ بمُدلِجٍ إلّا سُفَکت دمه وقَد أجّلتُکم فی ذلکَ بمقدارِ ما یأتی الخَبرُ الکُوفةَ ویرجعُ إلیکُم، إیّایَ ودَعوَی الجاهلیّةِ فإنّی لا أجِدُ أحَداً دعَا بها إلّا قُطعت لسانه... .»

ب. **بنیةُ الخطبة**: إنّه قد بنی الخطبةَ علی أسالیب مختلفة، لکی یلقی رأیه علی الناس ویقنعهم ویخضعهم أمام ولایته، من هذه الأسالیب هی الأو لی: عدم البسملة وحمد الله تعالی فی الخطبة، ولعلّ هذا یرجع الی خطیرة أمر مجتمعه. والثانیة: أسلوب النداء فی قوله: «أیّها النَّاسُ إنّا أصبَحنَا لَکُم سَاسَةً و... .» والثالثة: أسلوب الطباق: فی قوله «کالسُّفهاءِ والحُلَماء، الصَّغیر والکَبیر، الثَّواب والعَذَاب، و...» ومردّ ذلک إلی موضوع الخطبة ورغبته فی إجراء المقابلة بین الأضداد لتوضیح الفرق بین الطاعة والمعصیة وبین الثواب والعقاب والفروق السائدة بین أجیال المجتمع علی الإطلاق. والرابعة: أسلوب الإطناب: لیعالج موضوع الفساد والاضطراب السیاسی والاجتماعی فی البصرة. والخامسة: أسلوب السجع: فی قوله «إنّ الجهالةَ الجهلاءِ والضلالةَ العمیاءِ» أو فی قوله «ینبت فیها الصغیرُ ولایتحاشی عنها الکبیرُ» کی ینتبهو ا إلی کلامه الناس بواسطة هذه الزینة البیانیة. والسادسة: المزج بین أسلوبی النفی والإثبات: فی قوله «ما أنتم بالحُلَماءِ ولقَد أتبَعتُم السُّفَهاءِ» فهو ینفی عن الناس صفة الحلم والرزانة لعدم اعتراضهم أو لاتباعهم سیرة الجهلة والأراذل. والسابعة: الاعتماد علی ضروب من التقسیم کما تعتمد علی ضروب من التشبیهات والاستعارات وإن کان زیاد لایکثر من ذلک إلّا أنّه علی أی حال یعنی بالمهارة البیانیة فی خطابته کما یعنی بلفظها وصیاغتها. الثامنة: عبارات الخطبة: جاءت صلبة مناسبة للمقام الذی قیلت فیه، وصوّرت ما قد یحلّ بهم من عقابه تصویراً قویاً مفزعاً. وبطبیعة الحال بناء الخطبة بهذا الشکل یدلّ علی أنّها لم تکن مرتجلة وأعدّت إعداداً فنیاً محکماً.

ج. **غرض الخطبة الأساسی**: الخطبة ترینا علی أنّها تستتبع غرضاً مهماً وهو القضاءُ علی ما کان بالبصرة من شغب وتهدئةُ الجوللدولة؛ الخطیب رأی أن یصل إلی مأربه بأسالیب عدیدة منها التهدید الرهیب، والوعید، والإقناع، و.. الخ وإنّه نجح فیما أراده. بحیث أنّه مع کیاسته وحذاقته وَعَدَ المستقیمین خیراً وجعل لهم الحقّ فی محاسبته علی کذبه وأعلن أنّه لن یحتجب عن ذوی الحاجات ولن یحبس العطاء أو یحجز البعث وبهذا کانت له أمنیات بجانب تهدیده. (شلبی، ۱۹۸۶م: ۶۷) وختم الخطبةَ بطلب دعاء البصریین للحکومة بالصلاح وبإخلاصهم لها ولزوم طاعتها لا لأنّها فی حاجة إلیهم بل لأنّهم سیکونون عرضةً للهَلاک؛ فی قوله: «لستُ محتجباً عن طَالبِ حاجَةٍ مِنکُم ولَوأتانِی طَارقاً بلیلٍ. ولا حابساً عطاءً ورِزقاً عَن إبّانةٍ ولا مُجمَراً لَکُم بَعثاً فادعُوا اللهَ بالصَّلاحِ لأئمَّتکُم فإنّهم سَاسَتُکم المؤدّبونَ لَکُم وکَهفُکُم الّذی إلیهِ تَأو ونَ، ومتَی یصلَحُوا تصلَحُوا...» فمِن هذه المختارات من الخطبة، یمکن أن ندرک بأنّ البغیة الرئیسیة للخطبة تدور حول اصلاح المجتمع وصلاح أهله.

إن نوجز القول فى تحليل هذه الخطبة، نفهم أنّها كانت متّفقة مع مقتضى حال نفسية زياد والمجتمع الذى كان يعيش فيه ومع الحالة السياسية والاجتماعية آنذاک؛ الخطيب تأثّر فيها بمقتضيات مجتمعه وعصره المكتظة من الأحزاب والأفكار وأرغب أهلَه فى الطاعة والإذعان، والكفّ عن المسأو ئ والخلود إلى الهدوء والاستقامة فى العمل، حيث إنّه يظهر أمام مجتمعه بمظهر الواعظ الرادع ويذكّرهم بما أعدّ الله من الثواب والعقاب لهم، كلّ على قدر ما يحسن أو يسيئ، ثمّ ينتقل من اللّوم والتهويل إلى التأنيب والزجر ويجسّم أمامَهم قبحَ أعمالهم وفظاعة سلوكهم ويبيّن لهم كيف تنكّروا للدّين وابتعدوا عن جادته وأمعنوا فى ضلالهم، حتى أطبقت عليهم السفاهة وملكت قلوبهم الجهالة، فأقاموا بيوت الفسق فخذلوا الشهامة والفضيلة، وناصروا الغواية والرذيلة.

فى تصديق ما بيّنناه مدعانا هذا، حسبنا أن نستمدّ بقول بعض الباحثين المجدّين حول هذه الخطبة؛ عمر فاروق الطباع أحد باحثى العصر الاموى المجدّين فى كتابه "مواقف فى الأدب الأموى" عندما يهتم بدراسة زياد ابن أبيه وأدبه، يعتبر هذه الخطبة سياسياً حيناً واجتماعياً حيناً آخر؛ حيث إنّه يحسبها بمثابة دستوراً للسياسة التى سيتبعها زياد بعد تولية أمر البصرة. ويبدوأنّ الغرض السياسى فيها، هو توضيح منهجه فى العمل وطريقته فى الحكم. ولذا تعتبر الخطبة أشبه ببيان وزارى، يعلن فيها الوالى الجديدَ ما أزمع عليه من الخطوات الكفيلة باستقرار أمور المجتمع البصرى واستتباب الأمن والنظام فيه. أمّا عندما يقسم الباحث هذه الخطبة على مقاطع ثلاثة، نرى أنّ جميع هذه المقاطع تكون اجتماعية وتدور حول المجتمع وأحواله وأحكامه. كما يقول إنّ «المقطع الأو ل تشتمل على فكرتين مرتبتطين بالمجتمع وهما: ١. تبيان ما يسود مجتمع البصرة وما يرتكبه أهلها من آثام الفسق والفحشاء. ٢. التنديد بأهل البصرة والحملة الشديدة على فجورهم وسقطاتهم. والمقطع الثانى يتناول فيه ناحيتين مرتبطتين بأمور المجتمع وأحكامه هما: ١. تحديد الأحكام التى ستوضع موضع التنفيذ لمواجهة المفاسد القائمة. ٢. النّص على إلتزام جانب الحق والدعوة إلى إصلاح الأمور. والمقطع الثالث يدور حول نقطتين هما: ١. الدعأو ة لبنى أمية وتأييد سلطانهم وحقّهم على الناس. ٢. تأكيد السياسة الحازمة والتحذير من التمادى فى الباطل.» (فاروق الطباع، ١٩٩١م: ٢٥٩-٢٦٠)

إن نقارن تحليلنا من الخطبة وكيفية تأثّرها بالمجتمع ومؤثراته المختلفة مع ما بيّنه لنا الباحث فاروق الطباع، نستنتج بأنّ زياد كان متأثراً من المجتمع البصرى وأبرز لنا مظهر هذا التأثير فى خطبته البتراء. ولقد أدّت الخطبة الدور المنقطع النظير للأغراض التى كان يهدفها زيادُ.

النتيجة

يستنبط من هذه الدراسة النقاط التالية:

١. الأدب يكون مولد البيئة الاجتماعية ومؤثراتها التى تكون منبعاً لإلهام الفنون المختلفة. لذلک فإنّ المجتمع هو الذى يؤثر بشكل مباشر فى أعمال الأديب، ولمؤثراته أهمية كثيرة فى بلورة أسلوب الفنان؛ بحيث إذا كانت الحياة الاجتماعية هادئة وغير مضطربة يتأثر الأديب من تلک البيئة ولايشكو من أى ألم بل يرغب فى ذكر جماليات نصّه وبيان زخارفه. وما إن كانت البيئة مضطربة والفتن فيها دائمة وتحتاج إلى حاكم مصلح يرشدها حتّى يفتح الأديب إمّا لسان الشكوى وإما لسان الإصلاح ويخلق شكلاً من الأدب فى قالب اجتماعى.

٢. بيّننا مظاهر هذا التأثير من خلال دراستنا الموجزة حول مظاهر الحياة الاجتماعية فى العصر الأموى ودورها على نشوء وتطوّر الخطابة مستمداً بتحليل الخطبة البتراء لزياد ابن أبيه. بحيث إنّ البيئة التى كان يعيش فيها زياد – مجتمع البصرة– كانت مضطربة وقلقة، ولم تكن على ما يرامها؛ لذلک تأثر الخطيب فيها من مقتضيات ذلک المجتمع ومؤثراته المختلفة كالبيئة الحضرية والبيئة الاجتماعية، وامتزاج العرب بالأمم الأخرى، والعصبيات والمفاخرات، والاضطرابات السياسية والاجتماعية. فظهر حيناً واعظاً وحيناً حاكماً أمام أهله بغيةَ الوصول إلى غرضه الإصلاحى وهو القضاء على ما كان فى مجتمعه من الاضطرابات السياسية والاجتماعية وتهدئة جوّه لحكومته.

٣. اعتبرنا شخصية زياد شخصية اجتماعيةً وإصلاحيةً من خلال أعماله الحكومية والقيادية وولاياته العديدة لأمراء الدولة الأموية كتولية إمارة فارس زمن الإمام على عليه السلام، ثمّ إمارة البصرة، فالكوفة، فالحجاز واليمامة، جميعاً زمن معأو ية، وبراعته فى علم الحساب والكتابة والخطابة.

٤. اعتبرنا الخطبة اجتماعيةً وإصلاحيةً لدواعٍ أهمّها: أنها قيلت فى البيئة الحضرية أى مجتمع البصرة المضطربة، ثمّ أنها بنيت على أساليب متعددة وفنية ومحكمة، وأخيرا أنها كانت تحمل غرضاً اجتماعياً. وأصدقنا على قولنا بالمقارنة مع قول أحد الباحثين فى ذاک العصر.

المصادر والمراجع

أبوزهرة، محمد. ١٩٨٠م. *الخطابة أصولها تاريخها فى أزهر عصورها عند العرب*. ط٢. بيروت: دار الفكر العربى.

ابن عبد ربه. ١٩٥٢م. *العقد الفريد*. شرح أحمد أمين. المجلد الرابع. ط٢. بيروت: دار الكتاب العربى.

البستانى، محمود. ١٤٢٢ق. *الأسلام والأدب*. المكتبة الأدبية المختصة.

الجبيلى، سجيع. ٢٠٠٥م. *الفنون الأدبية فى العصر الأموى*. ط١. مصر: دار ومكتبة الهلال.

جفال، على نعيم. ١٩٩٠م. *زياد ابن أبيه بحث فى الخطابة الأموية*. ط١. بيروت: دار الكتب العلمية.

الجنابی، عبد الکریم دوحان. ۲۰۰۵م. *تاریخ الخطابة العربیة إلی القرن الثانی الهجری*. ط۱. القاهرة: مکتبة الثقافة الدینیة.

حجت، محمد. ۱۳۸۷. «اثرپذیری دیوان صائب تبریزی از قرآن کریم». فصلنامه مطالعات ادبیات تطبیقی. سال دوم. شماره ۶. صص۸۹-۱۰۴.

الحسین، قصی. ۱۹۹۸م. *تاریخ الأدب العربی العصر الأموی*. ط۱. القاهرة: مکتبة الهلال.

الحوفی، أحمد محمد. ۱۹۶۵م. *أدب السیاسة فی العصر الأموی*. بیروت: دار القلم.

ـــــــــــــ ۲۰۰۱م. *فنّ الخطابة*. القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر.

الخلف، عبدالله بن سالم. ۲۰۰۱م. *مجتمع الحجاز فی العصر الأموی بین الآثار الأبیة والمصادر التاریخیة*. ط۱. مرکز بحوث ودراسات المدینة المنوّرة.

شلبی، عبد الجلیل عبده. ۱۹۸۶م. *الخطابة وإعداد الخطیب*. ط۲. القاهرة: دار الشروق.

ضیف، شوقی. ۱۹۵۶م. *الفن ومذاهبه فی النثر العربی*. ط۲. القاهرة: مکتبة الأندلس.

العاملی، حسین جمعة. ۱۹۸۳م. *الخطابة تاریخها، قواعدها، آدابها*. ط۱. بیروت: مطبعة وزنکوغراف الفکر.

عبد العزیز، عتیق. ۲۰۰۱م. *فی الأدب الإسلامی والأموی*. ط۱. القاهرة: دار النهضة العربیة.

الفاخوری، حنّا. ۱۳۷۷ش. *تاریخ الأدب العربی*. ط۱. طهران: نشر التوس.

فاروق الطباع، عمر. ۱۹۹۱م. *مواقف الأدب الأموی*. ط۱. بیروت: دار القلم.

فرحانی بغلانی، إبراهیم. ۱۳۷۳ش. *حرکة تطور الخطابة فی الأدب العربی من العصر الجاهلی حتی نهایة العصر الأموی*. رسالة الماجستیر. تهران: جامعة تربیت مدرس.

فروخ، عمر. ۱۹۹۲م. *تاریخ الأدب العربی. الجزء الأو ل*. ط۶. القاهرة: دار العلم للملایین.

قدامة بن جعفر، أبی الفرج. ۱۹۳۷م. *کتاب نقد النثر*. ط۲. القاهرة: لجنة التألیف والترجمة.

النص، إحسان. ۱۹۶۳م. *الخطابة العربیة فی عصرها الذهبی*. القاهرة: دار المعارف.

یازجی، کمال. ۱۹۸۶م. *الأسالیب الأدبیة فی النثر العربی القدیم*. ط۱. بیروت: دار الجیل.

-http://www.mohtawa.org